**المدرسة الرواقية.....أ/العمزاوي نبيلة**

## أولا: ماهية الفلسفة عند الرواقيين:

مدرسة معاصرة للأبيقورية ومعارضة لها وقد تميزت بطابعين :**أولها**: استنادها إلى تصور الخلق العالم يحدده العقل ويتيح للإنسان ترتيب قواعد السلوك الأخلاق التي تحقق له السعادة. وعلى هذا فإن البحث في الطبيعة لا يكون مطلوبا لذاته أي لمجرد إشباع الرغبة الخالصة في المعرفة بل خضوعا للغاية الأخيرة وهي تحقيق السعادة، أي لوجهة عملية نفعية .**ثانيا**: اتجاهها إلى نظام المدرسة الفلسفية القائمة على التربية الأخلاقية والروحية والتي لا تهتم كثيراً بتمحيص الآراء والمواقف السابقة والرد عليها واستخدام الاستدلال العقلي في هذا المجال فإن هذا الأسلوب قد يصلح –إلى حد ما . في تثبيت قواعد المدرسة وفى إعطائها صورة قوية واضحة، وبقى عمل المدرسة الأساسي في الممارسة الفعلية لقواعد السلوك الأخلاقي التي تؤسس سائر مواقفهـا النظرية سواء في مجال المنطق والمعرفة أو في مجال الطبيعة.

## ثانيا: المضمون المعرفي لمباحث الفلسفة عند الرواقية

قد استعار زينون الكتومي من أفلاطون تقسيم الفلسفة المتمثل في المنطق والطبيعة والأخلاق. لكن ما يميز تقسيمه هذا أنه يرى" **أن المنطق والميتافيزيقا وسائر العلوم إنما تدرس من ناحية منفعتها العملية فحسب، وتقتصر أهميتها في تعاليم المدرسة باعتبارها مقدمة الأخلاق ومدار البحث فيها الحكمة العملية، وهي فضيلة الفضائل ومؤداها أن يحيا الحكيم ويعمل وفقا للعقل، والعقل بدوره مطابق الطبيعة، والعلم النظري يخضع أيضاً لهذه الغاية فإذا لم يحقق غاية عملية فلم يؤثر في ميولنا ويوجه أفعالنا فإنه يصبح عقيماً لا طائل تحته أو شراً يجب الابتعاد عنه** " هكذا تستطيع أن نفسر الحافز الذي دفع بزينون إلى التفلسف، لم يكن هذا سوى رغبته الملحة في أن يجد سنداً أو تبريراً معقولا لحياته الأخلاقية، ولهذا فقد تميز مذهبه عن مذهب القورينائيين باهتمامه بالبحث العلمي وكانت القورينائيه

تتجاهل هذه الناحية وتكتفى بطلب السعادة واستقلال النفس عن طريق الممارسة العملية للفضيلة . وإذن فعلى الرغم من أن الرواقية كانت ترى أن الغاية القصوى للفلسفة تتمثل في تأثيرها على حياة الفرد الخلقية، إلا أنها ترى أنه يستحيل قيام الأخلاق الحقة بدون معرفة نظرية، فالفضيلة مطابقة للحكمة، والفلسفة ولو أنها ممارسة للفضيلة، إلا أنها تعرف أيضاً بأنها العلم بماهو إنساني وإلهي فإن العلم عند الرواقيين هو الخير الأسمى وهو الغاية القصوى الحياة . وكان زينون نفسه يرى أن المعرفة العلمية شرط لابد منه لتوجيه السلوك الأخلاقي.

## 1/ المنطق ونظرية المعرفة

**1-1/ ماهية المنطق عند الرواقيين وأقسامه:** كان الرواقيون بعد كريسيبوس يقصدون بالمنطق الكلام النفسي والكلام المنطوق ولهذا فقد قسموا المنطق إلى بابين وهما **الخطابة** وثانيا **الجدل** والذي يعنينا بهذا الصدد هو بحث ما أطلقوا عليه اسم الجدل حيث يميز الرواقيون في **باب الجدل** بين **الدلالة** و**المدلول** أو التسمية والمسمى أي بين مبحث الألفاظ ومبحث التصورات ثم يتكلمون في قسم ثالث عن **معايير المعرفة** فيما يعرف باسم نظرية المعرفة -أما فيما يتعلق **بالقسم الأول** من الجدل أي في **نظرية الدلالة** فإنهم يشيرون إلى أن هذا القسم يتناول الشعر والموسيقى والنحو أي قواعد المعة أما **القسم الثاني** فهو الذي يبحث **في المدلولات** أي في الأشياء التي تقصدها الإشارة أو التسمية أو الدلالة، وأخيراً **القسم الثالث** من الجدل وهو الذي يتضمن معايير الصدق والكذب أي نظرية المعرفة . ويمكن تلخيص مباحثهم في المنطق بوجه عام في قسمين رئيسيين وهما المنطق الصوري ونظرية المعرفة

**1-2/ نظرية المعرفة عند الرواقيين:** الرواقية فلسفة تجريبية تفترض أن الجزئيات هي الحقائق الأساسية التي تقوم عليها المعرفة، والمعرفة لابد أن تبدأ من الإدراك الحسي أي من إدراك هذه الجزئيات وهم يذهبون إلى أن النفس عند الميلاد تكون كالصفحة العارية النقية عارية من أي

أثر وهذا الموقف يشبه موقف المدرسيين وجون لوك حيث يطلقون على هذه الصفحة النقية عبارة Tabula rasa وهذه النفس النقية العارية عن أي أثر أو انطباع تتكون فيها التصورات شيئاً فشيئاً مما تستقبله من آثار خارجية فليست التصورات سوى انطباعات الموضوعات الخارجية في النفس أو انها – على رأى آخر – التغيرات التي يحدثها الموضوع الخارجي في النفس ، حتى معرفتنا بحالتنا الباطنية ونشاطنا النفسي الخاص فانه مستمد أيضاً من الادراك الحسى على رأى **كريسبوس** ولذا فإن الرواقيين لا يميزون بين الادراك الباطني والادراك الخارجي ما دام هذان النوعان يتحدان في المدرك الخارجي . **كيف إذن يتم للنفس اكتساب المعرفة الخارجية وكيف تتكون في النفس هذه التصورات أو الانطباعات الآنية عن الموضوعات الخارجية؟** هناك نوع أولى من التصورات أو الأفكار التي تصل إلى النفس عن طريق الإدراك الحسى ويطلق عليها الرواقيون **إسم الأفكار أو التصورات المتعارفة** –هذا النوع من الأفكار أو التصورات المتعارفة يمتاز عن الظن بأنه يتمثل في اعتقادات لا يمكن أن يوجه إليها أي اعتراض ويرى الرواقيون أن هذه التصورات المتعارفة التي يسميها البعض بالأفكار الفطرية، كفكرة الخير وفكرتنا عن الآلهة ليست فطرية أو غريزية بالمعنى الذي يفسرها به العقليون ولكنها استدلالات تلقائية قائمة على الإدراك الحسى المباشر ، ففكرة الخير مثلا تأتى من مقارنة الأشياء الخيرة فيما بينها ، وإدراك العلاقة التي تجعل شيئاً خيراً ينطبق على شيء خير آخر من حيث صفاتها الذاتية . وكذلك فكرتنا عن الآلهة فإنها تتكون لدينا من إدراكنا لجمال الأشياء وحسن تنسيقها. وهكذا تتكون لدينا طائفة من التصورات الأولية العامة تبدأ في الظهور في النفس في سن الرابعة عشر، ثم تليها تصورات من نوع آخر إذا تجمعت كونت ما نسميه بالذاكرة، ومن الذكريات المتعددة يتكون ما نسميه بالخبرات أو التجربة.

على أن ثمة مشكلة تعترضنا حين الكلام على صلة هذه التصورات بالموضوعات مع الخارجية، ذلك أننا يجب أن نبحث أولا عما إذا كانت إدراكاتنا الحسية متفقة .موضوعاتها الخارجية أى يجب أن نتأكد من أن ثمة علاقة بين الادراك وموضوع الادراك أي الشيء الخارجي. وهنا يجعل الرواقيون أساس القول بصحة هذه العلاقة ما يسمونه **بالتصديق**، ذلك أن طائفة من تصوراتنا ترتبط بشعورنا وتضغط علينا لكى تحملنا على التصديق بها والتسليم بأنها آثار صادقة للموضوعات الخارجة أي أنها صادرة عن أشياء حقيقية ، ومن هنا تتسم هذه التصورات بطابع يقيني مباشر فاذا صدقنا هذه التصورات فكأننا ندرك الموضوعات الصادرة عنها في ذاتها ، وإذن فالرواقيون يجعلون معيار الصحة ذاتياً يقوم على التصديق النفسي وهذا هو كل ما يؤسس حقيقة **الصلة بين الحس والمحسوس** وهم يميزون بين الأثر الحى المباشر ، وهو الصورة الأولية البسيطة التي تنطبع في النفس نتيجة الإحساس المباشر كصيرة الخاتم في الشمع وبين التصور إذ أن **التصور** يمتاز على الصورة الحسية بأنه يتضمن **التصديق** بأن هذه الصورة الحسية هي أثر الموضوع خارجي حقيقي، وكذلك يتضمن هذا التصور ثبات هذه الفكرة أي استمرارنا في التصديق بصحة الصورة الحسية ، **هذا التصور التصديقي هو معيار الحقيقة**، والتصورات من هذا النوع هي معايير الصدق والكذب ما دامت صادرة عن الإدراك الحسي الذي هو أساس المعرفة . وإذن فالإحساس والتصورات أساسان حقيقيان للمعرفة إذا لم تسلم بهما لا يمكن أن يقوم السلوك الأخلاقي على أساس معقول. بل إن الإحساس هو المصدر الأول لكل أفكارنا. أفكارنا ومعارفنا

ومعنى هذا أن مراتب اليقين في نظرية المعرفة عند الرواقيين كالآتي **أولا**: نجد أن أولى درجات المعرفة هو الأثر الحسي المباشر أو الصورة الحسية، و**ثانيا**: تعرض هذه الصورة على النفس وقد تقبلها أو ترفضها كقولنا هذا أبيض أو هذا أسود، وهذه هي مرحلة **التصديق**، فإذا قبلت النفس هذه الصورة وكانت على صواب في هذا القبول فهذا هو الفهم الصادق . وهو الدرجة

الثالثة في المعرفة أما إذا قبلتها النفس عن غير حق فإنه يكون لديها ظن خاطي .**ثالثا:** وإذن فالدرجة الثالثة من درجات المعرفة –بعد التصديق كمبدأ ذاتي للصدق والمكذب – هذه الدرجة الثالثة هي **الفهم** أو الإدراك الحسى كموضوع خارجي حقيقي في مقابل الصدق وتحس النفس في هذا الفعل أنه فعلها المتميز عن الصورة الحسية وفي هذه الحالة تدرك النفس أن الصورة الحسية تكون في حالة الصدق مطابقة للمحسوس الخارجي وتسمى الصورة إذن في هذه الحالة بالأثر المفهوم ومعنى أنها أثر مفهوم أنها تؤدى إلى التصديق الصحيح أي الى الإدراك الحسى . ولفظ مفهوم هذا يشير الى وظيفة الأثر لا الى طبيعته فالأثر المفهوم هو الأثر الحسي المطابق للموضوع الخارجي ولهذا الأثر وظيفة أساسية وهى أنه يسمح بالإدراك الحسي الصحيح أو هو الذى يصدر عنه هذا الإدراك الحسي، ولكن الرواقيين لم يميزوا في وضوح بين الأثر المفهوم والأثر غير المفهوم وإذن **فالأثر المفهوم** هو أول درجات اليقين ، أما **العلم** فهو يقوم على مجموعة مترابطة من هذه الآثار المفهومة أي الإدراكات الحتمية ، ويقوم العلم على أساس وطيد لأنه يستند الى ترابط هذه الآثار المفهومة ترابطا فعليا ، أما الفن فهو وسط بين العلم والإدراكات الحسية ، إذ هو إدراكات حسية تؤلفها التجربة لغاية خاصة نافعة في الحياة. إذن فلدينا أثر حسي مباشر ثم تصديق بهذا الأثر واجتماع الأثر الحسي والتصديق يعطينا التصور الصحيح القائم على الإدراك الحسي المشتمل على الصورة المفهومة، ثم لدينا أخيرا العلم وهو موضوع دراسة الحكيم .هذه فكرة أولية عن مبحث التصورات عند الرواقيين من الناحية العامة .

## 2-2/ الطبيعيات

يخضع موقف الرواقيين ويتضح نحو الطبيعيات في ضوء رؤيتهم الميتافيزيقية القائلة **بوحدة الوجود المادية** حيث تمّ توطين هذه المسلمة عبر مبدأين جوهريين أقاموا عليه فلسفته الطبيعية وهما مبدأ الجسمانية الشاملة والثاني مبدأ المحايثة الإلهية من ناحية **المبدأ الأول** يرون أن

**الجسميات** هي الحقائق وحدها، **فلا وجود في نظر الرواقيين** ، كما في نظر أبناء الارض الذين قرعهم افلاطون في محاورة السفسطائي تقريعاً شديداً ، إلا للأجسام ؛ إذ أن تعريف الوجود عندهم هو ما يقبل الفعل أو الانفعال ، والاجسام وحدها هي التي تملك هذه القابلية . و اللاجسميات التي كانوا يسمونها ايضاً المعقولات، هي إما أوساط غير فاعلة وغير منفعلة على الاطلاق. نظير المكان والفضاء والخلاء، وإما تلك المعاني المقولة في فعل، أي الاحداث او المظاهر الخارجية لإيجابية موجود من الموجودات، وبكلمة واحدة، كل ما يدور في العقل بصدد الاشياء، ولكن ليس الاشياء ذاتها ما دام العقل يفعل فهو اذن جسم؛ والشيء الذي يتأثر بفعله أو نفعا هو ايضاً جسم، اسمه المادة.

من هنا نستنتج أن المادة لاتقوم ولاتفنى إلا إذا كانت فيها قوة ألطف منها تمسك أجزائها وتربط بعضها ببعض أي أن المادة تتكيف بمنتهى اللين والإنقياد للفعل الإلهي وقد وصف لنا الفيلسوف الرواقي سينكا ذلك قائلا:" **إن المادة منفعلة معدة من أجل كل الأشياء وتكاد تكون بلاقيمة مالم يحركها فاعل أما العقل= النفس= الإله فهو ذلك النظام الذي يشكل المادة**". على ضوء الإقرار السابق القائل بوجود قوة لطيفة تضمن أو تكفل لنا ربط أجزاء العالم وتماسكه والمسماة بالعقل= النار=النار فإن الرواقي يرى أن أشياء العالم **حادثة** ويضمحل دون أن تشوب كماله شائبة وذلك ما دام الوجود لا يتغير ولا يدوم إلا لأنه يفعل أو ينفعل بالاعتماد على قوته الباطنة وحدها . بل إن العالم المتغير والمتحرك دوماً وأبداً يكون ، في كل لحظة وآن ، في ملاء كماله : « فالحركة في كل آن من آنائها فعل وليست انتقالاً الى الفعل ؛ والزمان، مثله مثل المكان ، هو لاجسمي INCORPOREL بلا جوهر وبلا ماهية ، ولا وجود بالتالي لدى الرواقيين لأي **استعداد**، خلافاً لما عليه الحال لدى أرسطو وورثة افلاطون، للإعلان على قدم العالم بغية إنقاذ كماله **لأن الحركة والتغير والزمان قرينة على عدم الكمال وعلى نقص الوجود** .

حدوث العالم ونهايته من منظور الرواقية عموما يكون عبر هذا النفس الإلهي فقصة الكون تدور على مرحلتين متناوبتين، في واحدة منهما يمتص الإله الاكبر او زفس – وهو النار او القوة الفاعلة الموجودات طراً ويتمثلها في ذاته ، وفي المرحلة الاخرى يحيي ويدبر عالماً ذا نظام . فلكي يخلق الله العالم حوّل جزءا من البخار الناري الذي تتكون منه ذاته إلى هواء ثمّ إلى ماء يكون الله حالا فيه كقوة تكوينية مصورة ثم يدفع بجزء من الماء ليتحول إلى أرض وجزء آخر يبقى كما هو على حالته المائية ويتحول جزء من الماء إلى هواء ثم يتخلل هذا الهواء فيصبح نارا وبذبك يكتمل دور من أدوار الوجود وتتميز نفس العالم عن جسمه وهذا لعالم كما نعرفه ينتهي باحتراق كلي أو ذوبان الاشياء والموجودات طراً في النار .

حيث يتحول العالم إلى كتلة ضخمة من البخار الناري وتعود هذه الكتلة فتنضاف إلى ذات زوس Zeus أي يعيد كل شيء الى الجوهر الإلهي لكي يعود فيصدرها في دور جديد ، تماماً كما كان من قبل ، بأشخاصه أنفسهم وأحداثه نفسها : انه عود أبدي دقيق صارم ، لا يترك مجالاً لأي ابتكار او اختراع ، وبالتالي وهو المقصود من مصطلح الاقتراح الدوري حيث أن النار التي تعد المبدأ الفعال عند الرواقية تقوم بعملية الخلق بصفة دورية عبر إحداث احتراق في الكون بأسره وفقا لأزمنة محددة وتعود مرة ثانية لخلق هذا الكون لأن الأولى تعتبر كما لو كانت البذرة الحاصلة عن لب الأشياء وعلل الموجودات هذه البذرة يسميها سينكا قائلا **بعد خمود النار لا يبقى في مبدأ الأشياء شيء آخر غير الرطوبة التي هي مبدأ خلق العالم** وعليه يكون الاحتراق الدوري ويسمي زينون وكريزيبوس هذا الاحتراق تطهيراً للعالم، ملمحين بذلك إلى أن بيت القصيد الرجوع ، كما في الطوفانات أو العواصف النارية التي تزخر بها الاساطير السامية ، الى حالة الكمال ، ويحرص كريزيبوس على أن يبين أن هذا الاحتراق لا يعني موت العالم ؛ إذ أن الموت افتراق النفس والجسم : والحال أن نفس العالم لا

تفترق في الاحتراق الكلي عن جسمه ، بل تكبر وتعظم بصورة متصلة على حسابه ، إلى أن تمتص المادة بأسرها وذلكم تغير موافق للطبيعة لا انقلاب عنيف.

من هذا التحليل السابق يظهر أن التصور الرواقي الطبيعي يستحضر الكثير من المفاهيم الفلسفية السابقة عليه من المدونة الأرسطية والهيراقليطسية وهو ما يجعلنا نقول: أن الرواقية تتطابق شكليا مع الأرسطية فالمبدأ الفعال والمنفعل التي يعتر الجوهر الذي يقوم عليه مفهوم الجسمانية الشاملة عند الرواقين يشبه مبدأ الصورة والمادة الذي تقوم عليه فلسفة أرسطو لكن الفرق يكمن في أن الصورة عند أرسطو تستكمل المادة بينما العقل (النفس)=الفعل عند الرواقيين أكثر تأثيرا على الموجود من فاعلية الصورة عند أرسطو، في حين تتطابق الرواقية كليا ومضمونيا مع فلسفة هيراقليطس فهي تقول بالنار الحية وباللوغوس أو العقل منبثقا في العالم وتسميه الله وترتب عليه القول بالغائية. أما **المبدأ الثاني** المسمى بمبدأ **المحايثة الإلهية** فإن الرواقيون لم يتحدثوا عن الإله والمادة باعتبارهما جوهريين بل دائما يعتبرون هذين الجوهرين صورتين لطبيعة واحدة وعلى ذلك يكون الإله ماديا أو الأقل ليس منفصلا عن المادة بل ممتزج بها امتزاج الدم في سائر الأعضاء ولابد أن ننوه أن مظاهر النظام والترتيب في العالم هي من أثر الإله وحلوله في نفس المادة لا بصفته مؤثرا من الخارج بل بصفته قوة مركوزة فيه تقود الطبيعة وكل من فيها إلى إدراك الغاية المقصودة منها.

**2-3/ الأخلاقيات:** يرى الرواقيون أن وظيفة الإنسان هي الكشف في نفسه عن العقل الطبيعي وأن يترجم ذلك بأفعاله وهو العيش وفقا للطبيعة الذي يقودنا إلى الفضيلة وقد أشار زينون الكتيومي لذلك في مقاله حول الطبيعة كما يروي ديوجينس:" **أن هدف الحياة أو غايتها هو أن نحيا بحسب الطبيعة وهو مدلول الفضيلة عنده وحياة الفضيلة هي الحياة بحسب الطبيعة وبحسب سنة الكون الذي يخضع كل شيء فيه للعقل الكلي الذي لا يختلف عن الإله زوس رب الكون وحاكمه**". فالإنسان الفاضل في الفلسفة الرواقية يستوجب

منه التوافق مع الطبيعة الكونية وهو ما يسمى بالمواطن الكوني، فطبيعة هذا المواطن أنه جزء من هذا النظام الطبيعي والعيش وفق الطبيعة عند الرواقيين ليس استسلاما وخضوعا للقدر المستبد بل عملية تحرر من قيود الأهواء والانفعالات غير عقلانية.